الاستشراق والمستشرقون

من هم المستشرقون؟

فى إجابة عن هذا السؤال يقول المرحوم الدكتور إبراهيم عبد المجيد اللبان عضو مجمع البحوث بالأزهر فى دراسة له عن «المستشرقون والإسلام»[1].

«المستشرقون اسم واسع يشمل طوائف متعددة غير عربية تعمل فى ميادين الدراسات الشرقية المختلفة، فهم يدرسون العلوم والآداب الخاصة بالهند والفرس والصين واليابان والعالم العربى وغيرهم من أمم الشرق»

وما طبيعة عملهم؟

بدأ الغرب دراسة العربية للترجمة منها فى وقت مبكر[2] بقصد الاستفادة من علوم العرب، كما فعل المأمون فى الترجمة عن اليونانية، ومع هذا إشباع رغبتهم فى التهجم على الإسلام والنيل منه، واستمر هذا قرونًا، ثم بدأت بعض دراسات حيادية من بعضهم القليل جدًا..

ويقول الدكتور اللبان فى هذا[3].

«إن الاستشراق عملية قديمة بدأت منذ قرون، ثم تطورت ولبست أثوابًا

---

(١) فى بحث قدمه لمجمع البحوث ونشرته مجلة الأزهر فى ملحق بها بهذا العنوان فى صفر ١٣٩٠هـ أبريل ١٩٧٠م.

(٢) منذ الحروب الصليبية، فقد ترجمت جداول الخوارزمى الفلكية إلى اللاتينية سنة ١١٢٦م وكان لها أثرها البعيد فى معرفة أوربا بالفلك هى وغيرها مما ترجم من كتب الفلك العربية، وكذلك الكتب الطبية العربية التى عكف الغربيون على ترجمتها للأستفادة منها، وترجمة علوم العرب عامة، ويمكن الرجوع إلى الكتب التى ألفت عن العرب والعلم أو المسلمون والعلم، وأثرهم فى نهضة أوربا. وراجع أيضًا إنشاء الجامعات والمدارس لترجمة العلوم العربية ص ١٧٩ من كتاب «القرآن والمنهج المعاصر» للمستشار عبدالحليم الجندى طبعة دارالمعارف ١٩٨٤.

(٣) المصدر السابق ص ٦.

شتى، واستعملت أساليب مختلفة وتحكمت فيها نوازع متباينة وقد قاموا بترجمة القرآن أيام الحروب الصليبية بقصد العثور على مطاعن يطعنون بها الإسلام».

«فقد كانت فى أول أمرها محاولة انفعالية لتصوير الإسلام والبلاد الإسلامية بصورة مشوهة، وكان الباعث الأول الذى دفعها إلى نشاطها، هو العداوة التى أحدثها اختلاف الدين، وما تركته الحروب الصليبية وراءها فأخذ يعمل عمله فى بعض النفوس، ويدفعها إلى التفنن فى ضروب التشفى».

«وأهم هذه المحاولات أنها لم تقم على أساس دراسة الدين فى مراجعة الوثيقة دراسة مخلصة نزيهة، تعتمد على الأسلوب العلمى الصحيح، وإنما كانت رغبة جامحة فى التشفى والنيل من مكانة الإسلام ورسوله».

«وقد دخلت الفاتيكان بكل ثقلها فى النيْل من الإسلام عن طريق الاستشراق، فعملت على أن ترسل بعض رجالها من المبشرين، إلى بلاد الشرق لتعلم اللغة العربية وأنشأت معاهد لذلك، كما أنشأت مطابع عربية لمساعدة هذه الحركة». ثم يقول تحت عنوان «تطور جديد»[١].

«تم تطور الاستشراق تطورًا جديدًا وهامًّا جدًّا، بخاصة من ناحية المقاصد، فبعد أن كان مسخرًا لخدمة التبشير، ومقتصرًا على رجال الدين وحدهم دون سواهم من الطبقات المثقفة، لبس ثوبًا جديدًا فصار علمًا قائمًا بنفسه، هدفه دراسة اللغات الشرقية وآدابها».

وأنشئت لذلك أقسام وكليات فى بعض الجامعات[٢].

«ولكن يجب مع ذلك أن نقرر أن ممارسة الاستشراق من أجل التبشير وخدمة الدين المسيحى لم تمت بظهور النزعة الجديدة العلمية، فقد ظل عدد من خدام المسيحية يمارسون الاستشراق لهذا الغرض نفسه، إلى اللحظة الراهنة» ومن غير رجال الدين..

---

(١) ص ١٥.

(٢) راجع ص ١٧٩ وما بعدها من كتاب «القرآن والمنهج العلمى المعاصر» سبق ذكره..

ففى هذه الكليات والأقسام لم يتخلص القائمون بها من روحهم العدائية المتأصلة فيهم من تربيتهم ووسطهم ضد الإسلام وأمته، فرأيناه يتحول إلى خدمة الاستعمار من وجه آخر وذلك بما يقدمه من معلومات وآراء تساعد خططه، وتحقق هدفه فى السيطرة على البلاد الإسلامية ويقول الدكتور اللبان[١]:

«وقد سمعت أحد كبار المستشرقين يتحدث أمامى فيذكر أن «مستر إيدن» كان قبل أن يضع قرارًا.. سياسيًّا فى شئون الشرق الأوسط، يجمع المستشرقين والمستعمرين ويستمع إلى آرائهم، ثم يقرر على ضوء ما سمعه منهم».

وليس يعنى ذلك كله أننا ننكر ما قدموه من خدمات فى تحقيق بعض كتب التراث وبعثها من جديد.. بنشرها، وما أصدروه من دائرة المعارف الإسلامية، وبعض الكتب التى يتحدثون فيها عن الإسلام، وإن كانت تحتاج إلى تعقيب وتصحيح لبعض الأغلاط، سواء كانت مقصودة أو عن قصور علمى، لضعف تمكنهم من العربية وفهمهم جيدًا للإسلام.

والخطير فى هذا كله سواء فى قراءة هذه الكتب أو فى الدراسة بأقسام اللغات الشرقية فى الجامعات الأوربية، أن بعض الذين يقرءون ويدرسون، يتأثرون بما يقرءون أو يسمعون، دون وجود حاسة نقدية عندهم، بسبب عدم حصانتهم بالدراسات الإسلامية السليمة التى يرجعون إليها فى وزن ما يصدر عن هؤلاء المستشرقين»[٢].

وهؤلاء العرب المسلمون الذين يتأثرون هذا التأثير، يصبحون شريطًا مسجلا يحكى عن هؤلاء نظرياتهم ودراساتهم المشكلة فى الإسلام فيما يكتبونه أو يدرسونه لطلابهم عندنا. وتتألف تبعًا لذلك مدرسة من شبابنا، تتبع هؤلاء المستشرقين فى أفكارهم الخطيرة عن الإسلام وأمه سواء بحسن نية وبلاهة، أو عن تعمد

---

(١) ص ١٨.

(٢) وقد انتسب لهذه الكليات والأقسام العربية فى جامعات الغرب بعض المتعلمين العرب لأخذ شهادات منها تحت إشراف أساتذتها وبتوجيهاتهم التى لابد أن يستجيب الطالب لها حتى ينال الشهادة التى يريدها على يد هؤلاء الأساتذة !!. وكم كان لهؤلاء الأساتذة من ضحايا من طلابهم، لتمسكهم بدينهم وقيمهم.. ومخالفتهم لأساتذتهم!

وبجاحة، تستهويهم قاعدة «خالف تعرف».

وكم بلونا من هؤلاء ما بلونا من شذوذ وخروج على قواعد الإسلام وآدابه وشريعته، بفعل الدراسات الشرقية التى قام بها المستشرقون على أنها دراسات علمية سواء فى الغرب أو فى دول الشرق الشيوعى والتى تمثل الغزو الفكرى والثقافى المخطط.. الهادئ الذى يسرى فى جسم الأمة الإسلامية بهدوء كما يسرى داء السرطان فى الجسم فيخربه..

الطريق الذى سلكه المستشرقون:

لا بد أن يكون مفهومًا بديهيًّا لكل مسلم، بل لكل قارئ أن هؤلاء المستشرقين بل وغيرهم من كتاب الغرب عامة، إنما ينظرون إلى الإسلام ويكتبون ويتحدثون عنه؛ من واقع عوامل خاصة تتحكم فيهم، لا من واقعنا ونظرتنا نحن:

* فالروح العدائية للإسلام والمسلمين متمكنة فى نفوسهم، رضعوها منذ طفولتهم، ثم نمت فى كبرهم فأصبحت تلون ما يكتبون.

* إنهم تربوا فى ظل تفكير ونظام مادى منفصل عن الدين، فقد عزلت المسيحيه عندهم عن حياة ونظام الدولة، وكان هذا فى نظرهم هو سبب نهضتهم وقوتهم، ثم استمرارها.. ومن هنا رسخ فى أذهانهم أن التفكير المادى، وتسلط الإنسان على مقدراته ووضعه نظام حياته بنفسه بعيدًا عن تأثير الدين المسيحى، هو كل شىء، والدين أى دين - يجب أن يبتعد عن الحياة، - حياة أى مجتمع - لكى ينهض هذا المجتمع، وعن هذا وعليه قام تفكيرهم، دون أن يلتفتوا أو يستوعبوا النظرة التقدمية الإسلامية لتنظيم الحياة..

* ولكن هل هم حين يكتبون هذا عن فكرهم وعقيدتهم طبعًا، ويوجهونه للمسلمين، ويضعونه تحت أنظارهم، ولا سيما شبابهم، يودون فعلًا أن ينهض المسلمون؟ ويحرصون على هذا؟ أم هم يريدون التخريب لنا وكفى؟ ويستخدمون غاية النهوض والتقدم لنبلع الطعم؟.

* قد يودون أن ينهض المسلمون، ولكن على أن يسيروا إلى نهضتهم - كما ساروا هم - على حطام دينهم - فالإسلام هو عقدتهم - فلا بأس أن ينهض المسلمون كما نهض الغرب، لكن على الأساس الذى نهض عليه وهو إبعاد الدين[١] عن حياته كما فعل هو..

* وهذا هو هدفهم الأصلى، لكن أن ينهض المسلمون، وعلى وحى وصوت من دينهم، هذا هو الخطر الذى يجب إبعاده، ويجب قبل أن ينجح المصلحون المسلمون فى وضع معالم النهضة من الإسلام وإقناع المسلمين بذلك، تجب المبادرة بوضع طريق آخر للنهضة أمام المسلمين، يؤدى إلى ما يزيد من تحويلهم عن دينهم وأصالتهم، وجعلهم ركاب عربة ملحقة بقطارنا، فنجرها إلى حيث نريد.

فلا يكون لهم أى شأن أو قيمة أمامنا كمسلمين أصحاب عقيدة ونظام واتجاه وحضارة، وكيان خاص بهم، كما كان شأنهم منذ بدء تاريخهم، مما أوقع بنا (أى المسيحيين الغربيين) المآسى على مر التاريخ..

كان هذا هدفهم وتلك هى خطتهم..

وتلاقى بذلك: الهدف الدينى والهدف السياسى، وتزاوجا عند المستشرقين إلا النادر منهم، ممن أخلص للبحث العلمى.

---

(١) يلاحظ المتتبعون لحركة التاريخ بعد أن أعلنت تركيا أنها دولة علمانية تسير فى اتجاه الغرب وقطعت صلتها بالإسلام والعربية أن السياسيين فى الغرب ومعهم المستشرقون فى بحوثهم وكتاباتهم أخذوا يشيدون بما فعلته تركيا وبما ظهر فيها من تقدم صناعى علمى بسبب انفصالها عن الإسلام.. راجع ص ٤٦، ٤٧ من العلمانية والإسلام للدكتور محمد البهى. مطبوعات مجمع البحوث ويلاحظ أن ما حصل فى تركيا من تقدم طفيف كان بسبب حرص الغرب على مساعدة تركيا بعد انفصالها عن الإسلام كمكافأة لها، ولكى يعطوا البرهان عمليًا على نتيجة إبعاد الدين عن الدولة.. ومع ذلك فحال تركيا هو كما نعرف الآن، لم تلحق بالغرب، ولم تبق على صلاتها بدينها بالشرق، وإن كان الشعب قد أرغم الحكومات على إلغاء كثير مما أصدره أتاتورك من قرارات متشددة ضد الدين واللغة العربية فأنشئت معاهد وكليات إسلامية، وعادت اللافتات والأذان باللغة العربية ونشطت الحركة الإسلامية بين الشعب نشاطًا مؤثرًا. وإذا كان هذا أمرًا حسنًا فإن ما ترتب على تغيير الكتابة من حروف عربية إلى لاتينية غربية قد قطع الصلة بين الشعب التركى الجديد وبين تراثه العظيم المكتوب بالحروف العربية.. وهى خسارة قل أن تعوض.

وعلى هذا الأساس اتجهوا إلى دراسة العربية والإسلام وسموا «مستشرقين»، وأخذوا ينقبون فى الكتب العربية عن الإسلام والأدب العربى، وكان لا بد لهم مهنيًا ولكى يظهروا بمظهر المهتم بالتراث العربى الإسلامى، فى أن يحققوا بعض المخطوطات ويطبعوها وأن ينظموا بعض الدراسات والكتب الدينية والعربية ويطبعوها.

وفعلاً قاموا فى ذلك بعمل ملموس استلفت الأنظار وكانوا سابقين فى هذا المضمار، كما أنشئوا المعاهد والأقسام العربية، ليربوا فيها طلابًا تلامذة لهم كما ذكرنا، وظهروا فى صورة الذين يخدمون التراث الإسلامى، كى نتقبل أعمالهم وآراءهم ونتخدع بها مما حصل فعلاً..

ومن خلال عملهم هذا وعلى مر الزمان قدموا دراسات عن الإسلام واللغة العربية تحمل وجهة نظرهم، ولكن لابد أن يكون معروفًا مقدمًا أن دراساتهم ووجهة نظرهم تقوم على أسس ترضيهم، ولكنها قد لا ترضينا ولا نقرها..

* فقد قامت دراستهم على أنه دعوة محمد الرجل المصلح - لا الرسول - فآراؤه الدينية وعلى الأخص آراء بشرية مما تعلمه من غيره ومن تجاربه، وعلى أساس هذا لا حصانة لها. ولا نأخذها قضية مسلمة.
* والقرآن من اختراع محمد وأقواله، نسبه زورًا إلى الله - كما كان يقول المشركون أيام الرسول مماحكاه القرآن عنهم: ﴿إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾[١]، ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا﴾[٢]، ﴿إنما يعلمه بشر﴾[٣] إلى غير ذلك مما حكاه القرآن من أقوال المشركين، ورد عليه. وقد كانوا مثل هؤلاء المستشرقين حاقدين.. وخائفين على مصالحهم.
* ومادام القرآن بشريًا واخترعه محمد وليس إلهيًا فمن الضروى أن يخضع للمقاييس البشرية لتنقده كما ننقد كلام أى كاتب وأديب، ونقبل منه ما نقبل ونرفض منه ما نرفض، ولا يصح أن نقف أمامه خاشعين مستسلمين مقدسين

---

(١) الفرقان ٤. (٢) الفرقان ٥. (٣) النحل ١٠٣.

له، بل لا بد أن يخضع لمقاييسنا فى البحث العلمى الجديد وهى مقاييس مادية.

* وعلى هذا بدءوا ينقدون القرآن، ويشرِّحونه تشريحًا، ويفترون ما يفترونه عليه، حسب أحقادهم وتصوراتهم الخاطئة.. وكانت لهم دراسات متعددة فى هذه الناحية، وضعوها أمام المسلمين فى ساحات الدروس وفى الكتب التى يصدرونها باسم: أنها أبحاث علمية، مما تأثر به بعض المسلمين[١].

* والإسلام لا يُعرف من القرآن والسنة فحسب، بل من تفكير المسلمين وتصرفاتهم أيضًا فى حياتهم، وبدءوا ينقبون ويلتقطون أفكارًا من هنا وهناك، وما أكثر شواذها المدونة فى الكتب، كما يلتقطون من واقع حياة المسلمين ما يصورون به الإسلام ومبادئه، وهنا يتحللون من مقاييس البحث العلمى: التى لا تجيز الربط بين المبدأ وتصرف صاحبه فى الحكم على المبدأ وسلامته..

* وهم ينظرون إلى تعاليم الإسلام ولا يقيمونها تقييمًا ذاتيًّا على أساس علاقتها بطبيعة الإنسان وأثرها فى الفرد والمجتمع، بل يقيمونها على أساس نظرتهم وحضارتهم المادية، هل توافقها أو تخالفها؟ مع اتهام كل ما يخالفها بالتأخر والتخلف، وهذه ليست نظرة علمية ولا منطقية.. فحضارتهم وطريقة حياتهم هما المقياس السليم للحكم وما عداها غرور. فمن أراد التقدم فعليه أن ينحو نحوهم، ويتبع سبيلهم، وفى المقام الأول عندهم: إبعاد الدين عن الحياة.

* والتمسك بالإسلام وتعاليمه - فى رأيهم - معناه العزلة عن الحياة وعن

---

(١) راجع كتاب «الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى» تأليف الدكتور محمد البهى الطبعة الثانية ١٩٦٠ نشر دار القلم ص ٢٠١ وما بعدها «بشرية القرآن».. وعرض لبعض مقاطع من كتاب «الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين، وبين أثر آراء المستشرقين فيها. لا سيما كتاب المستشرق.. جب «المذهب المحمدى» وقول الدكتور عن قصة إسماعيل إنها أسطورة استغلها الإسلام لسبب دينى ص ٢١٦، ٢١٧. كما يعرض بعض مقاطع من كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للأستاذ على عبد الرازق. وقد ألفه لأغراض سياسية لكنه تورط فيما ذكره عن الإسلام من أنه دين لا دولة، ويجب فهم الإسلام على ضوء المسيحية وبُعدها عن التدخل فى الحكم.. ص ٢٤٦ وما بعدها، وقد تأثر بهذا أخيرًا سنة ١٩٥٠ الأستاذ خالد محمد خالد فى كتابه «من هنا نبدأ» ويبنى رأيه على أن الإسلام دين لا دولة، ورددت عليه أنا وغيرى حينذاك، ولكنه عاد فى سنة ١٩٨٢ وصحح رأيه واعترف فى شجاعة محمودة بخطئه، وأخرج كتابه «الدولة فى الإسلام» واعترف بأن مما تأثر به قراءاته عن الغربيين فى كتابه الأول..

التقدم، معناه التخلف والضعف والمرض والفقر.. إلخ.. وتغافلوا عن نهضة المسلمين على أساس الإسلام هذه النهضة التى تتلمذوا عليها. ويسول لهم غرورهم، ويملى عليهم حقدهم: أن يرسموا لنا طريق التقدم، فيقولون:

* لا بد أن ينحو الإسلام نحو المسيحية فى تركيزها على غرس المحبة بين الناس، وكفى!! ويتخلى عن تدخله فى تنظيم الحياة وعلاقات المسلمين، بعضهم ببعض، وعلاقاتهم مع الآخرين، وعن التدخل فى تصرفاتهم المالية وغيرها، ما يحل منها وما يحرم.

* ويترك ذلك كله للناس، وهم أحرار فى وضع هذه النظم، حسب تصورهم ومصالحهم، يقبلون ما يقبلون، ويرفضون ما يرفضون، ويعودون فيرفضون ما قبلوا، ويقبلون ما رفضوا، هم أحرار فى تنظيم حياتهم بما يتفق مع العصر الذى يعيشونه، وما تمليه عليهم حياتهم!! نفس المنهج الذى سمى عندنا بالعلمانية واعتنقه مع الأسف بعض منا تتلمذوا على أفكارهم!!.

* ثم لا دخل له فى توجيه الناس إلى الدفاع عن دينهم وأوطانهم، مما سماه (الجهاد فى سبيل الله) وهذا هو المهم جدًّا عند المستشرقين، لأن الغربيين جميعًا يخافون ويرتعدون من كلمة الجهاد[1] فى الإسلام.

* وغايتهم من هذا كله أن يبعدوا الإسلام فى نفوس المسلمين عن التدخل فى تنظيم حياتهم وتحريضهم على رفض هذا التدخل وعلى فصل الدين عن الدولة، كما حصل فى أوربا لكى يتقدموا وينهضوا إذا أرادوا النهوض والتقدم!!

* والتلويح بالنهضة والتقدم شىء يغرى المتخلفين، وهو الشىء الذى استعمله عندنا رجال منا كبار للسير على منوال الغرب وحضارته، خيرها وشرها..

---

(١) أذكر وأنا فى الهند ما حكاه كبار المعاصرين من العلماء من أن الإنجليز بعد ما سيطروا على البلاد سنة ١٨٥٧م، وكان فيها مدارس دينية تدرس القرآن والحديث والفقه، فكانوا يحاربون كل مدرسة يعلمون أنها تدرس آيات وأحاديث وأبواب الجهاد إلى حد إغلاقها وسجن القائمين عليها، ولذلك سروا كثيرًا بميرزا غلام أحمد القادياني مؤسس القاديانية فى عهدهم، واحتضنوه هو وأتباعه، لأنه باسم الدين - وكان من علماء الهند أولاً - نادى بإبطال الجهاد بالنسبة للإنجليز فى الهند، واتخذ لنفسه دعوة جديدة، وأدعى النبوة، ولقى هو وأتباعه وحتى الآن من الإنجليز كل عون وتأييد وحماية.

باعتبار أن هذا شيء طبيعي[١] عندهم وفي رأيهم !!

* وقد نسي هؤلاء وتابعوهم أن الإسلام تتوفر فيه كل عوامل النهضة المادية في هذه الحياة، ويزيد عليها نهضة روحية تعتبر أساسًا قويًا وباعثًا لهذه النهضة المادية، ونسوا أن الحضارة المادية تحطم نفسها بنفسها إن لم تصحبها روح دينية..

لكن هكذا يدعو المستشرقون وغيرهم من الغربيين، ولا ملام عليهم ولكن اللوم على هؤلاء الرجال منا، الذين تابعوهم، لا سيما الذين درسوا الإسلام، ويستطيعون دراسته، ومع هذا يندفعون وراء الغربيين ويحاكونهم ويلتمسون لمسلكهم حججًا، ويبررون موقفهم هنا.

* تمامًا كالغربيين من هؤلاء المستشرقين، فهم أعقل من أن يدعوا دعوتهم الخطيرة هذه، دون أن يلتمسوا لهم أدلة وحججًا يتصيدونها من هنا وهناك، ويلقونها أمام طلابهم وقرائهم.. وهؤلاء المغرمون منا بالغرب، والذين بهرتهم حضارته أو مدنيته، يرددون بيننا ما يقوله هؤلاء المستشرقون، ويسخرون له جهودهم وأقلامهم دون فحص ودون بصر بالعواقب.

* ومما لا شك فيه أن هؤلاء المستشرقين قد يجدون البعض مما يتصيدونه من حجج في اعتبارهم، للتدليل على وجهات نظرهم، سواء في تراثنا الفكري أو في أفعال المسلمين وتصرفاتهم، ما داموا يستدلون على الإسلام من تصرفات أهله.. فالتراث الإسلامي بكل كتبه يشبه البحر الطافي تجرف مياهه معها الكثير من الغثاء والرمم، فهم كما يقال: «لكل ساقطة في الحي لاقطة».

وقد رأيت أناسًا في أيام فيضان النيل، يترصدون جثث الحيوانات التي يحملها النهر في طريقه ويحصلون عليها لكي ينتفعوا بجلدها، وبما يريدون الانتفاع به منها وآخرين كانوا يحصلون على (القش والبوص) الذي يجرفه النهر، وكذلك بعض الأخشاب المهملة التي ألقيت فيه[٢].. وهكذا..

(١) راجع كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» سنة ١٩٣٨ للدكتور طه حسين.

(٢) وشبههم الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه «الإسلام والمستشرقون» ص ١٧ ونشر ندوة العلماء «لكنو» الهند ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م شبههم بالسائحين في مدينة ذات رواء وبهجة ونظام ونظافة، فيتركون=

بينما الأسوياء من الناس يبتعدون عن مثل هذا، ويحرصون على أن يشربوا من النهر، بعد تصفية مياهه وتطهيرها من العوالق التى تعلق بها من عكارات وغيرها.. وللناس فيما يعشقون مذاهب..

لكن الانبهار بحضارة الغرب جعل أناسًا منا لا يقتصرون فى دعوتهم للاتجاه للغرب على اقتباس علومه وصناعاته وما شابه ذلك، مما ندعو إليه، ولكنهم يدعون إلى اقتباس خيره وشره، حلوه ومره، ويستحسنون أن يأخذ الناس بدعوتهم..

وهذا هو الخلل والنقص فى الثقافة الأصيلة لهؤلاء الكبار، الذين رضوا بذلك أن يكونوا معاول أخرى داخلية تضاف إلى المعاول الخارجية للمبشرين والمستشرقين، فى زعزعة ديننا وثقافتنا..

وإخواننا هؤلاء الذين أمسكوا بمعاول الغربيين يهوون بها على رؤوسنا، هم أشد خطرًا علينا من الغرباء الأعداء، فهم يضربون من الداخل فى بنياننا، وهم مسلمون منا، وربما باسم الإسلام وباسم الوطن والغيرة عليه والحرص على مصلحته وتقدمه يهدمون، ويجدون لذلك تلامذة لهم وأنصارًا، يشدون أزرهم،

=ذلك ولا يلاحظون إلا المزابل والمراحيض والمستنقعات، كما هو دأب المفتش على النظافة، وهم لايجدون فى الإسلام شيئًا من ذلك إلا فى خيالهم، ولكنهم يتصيدون شيئًا من ذلك فى بعض الكتب ولدى بعض الآراء والتصرفات وهم يقلبون الحسنة إلى سيئة بالمنظار الخاص بهم، ويكبرون الصغيرة حتى يصوروا الذرة جبلاً، والنقطة بحرًا ولكى يبدو منصفين فى نظر القارئ يذكرون بعض الحسنات الهامشية وفى وسطها يدسون السم المركز فى مقدمات تؤدى للشك فى قضايانا الإيمانية.

ويقول ص ١٩ تحت عنوان: «الاستراتيجية الدقيقة والاستشراقية» ومن دأب كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم غاية، ويقررون فى أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، ثم يقومون لها بجمع معلومات من كل رطب ،ويابس، ليس لها علاقة بالموضوع سواء من كتب الديانة والتاريخ والآداب والشعر أو الرواية والقصص أو المجون والفكاهة، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ويقدمونها بعد التمويه بكل جراءة، ويبنون عليها نظرية ألا يكون لها وجود إلا فى نفوسهم وأذهانهم، «ويثيرون بذلك فى قلوب قادة العالم الإسلامى اليوم وزعمائه ممن تثقفوا فى مراكز الغرب الثقافية الكبرى، أو درسوا الإسلام بلغات الغرب – شبهات حول الإسلام والمصادر الإسلامية، ويحدثون فى أنفسهم يأسًا من مستقبل الإسلام، ومقتًا على حاضره وسوء ظن ماضيه، حتى يتركز نشاطهم وحماسهم فى رفع لواء «تطوير الدين» إلخ، «ولابد أن نقارئ لمس – كما لمست هذا كله فى بعض الشخصيات التى تربت فى الغرب و حدث عنه وتعتمد على كتب المستشرقين المغرضين – وكأنها مقدسة – فى ثقافتهم الإسلامية.

ويغرونهم بالمضى فى طريقهم.. وكفى الله المبشرين والمستشرقين شر القتال!!

فكان موقفهم هذا شبيهًا بموقف المنافقين من الإسلام أيام الرسول، مما كشف عنه القرآن فى وقته، وكانوا يضربون الدعوة ويكيدون لها من داخلها، وهم معدودون من صحابة الرسول، حتى رفض صلى الله عليه وسلم مرة اقتراحًا بقتل أحدهم، لفظاعة جرمه وقال: «حتى لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»!!

وهم فى ضربهم للدعوة من الداخل ينطبق عليهم الاصطلاح السياسى الحديث للخونة الجواسيس «الطابور الخامس» والدول الآن تحكم على الطابور الخامس بالإعدام للخيانة الوطنية.. لبشاعة جرمهم.. وخيانتهم لأماناتهم التى اؤتمنوا عليها، فكانوا أشد جرمًا وضررًا من الأعداء الحقيقيين، وأكثر تمكنًا من إيذاء وطنهم ودينهم....

وقد حفظنا هذا الدعاء، ونتمثل به فى مثل هذا المقام: «اللهم اكفنى شر أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم».. لأن أمر الصديق كما يقول شاعرنا الحكيم: «فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة»....

وهكذا شأننا مع رجال أو عمال منا يحملون على أكتافهم معاول المبشرين والمستشرقين، ليهدموا بها حصوننا من الداخل، أو شأننا مع مكاتب للاستيراد، تستورد لنا الأغذية الفكرية الفاسدة، كما يستورد بعض الناس الأطعمة الفاسدة!

وإذا كنا نقرر هذا - كغيرنا - عن عامة المستشرقين وتلامذتهم فى بلادنا، فإن من العدل.. والإنصاف أن نذكر أنه كان لهم فضل كبير فى بعث كثير من المخطوطات إلى الحياة، وتحقيقها... ونشرها كما أشرنا إلى ذلك.

كما كان لبعض منهم ميزة الإنصاف والحيدة، التى أسلمت بهم إلى معرفة حقيقة الإسلام، والتحدث عن هذه الحقيقة، دون تحيز.. كما قدموا جهودهم المخلصة فى مؤلفات لهم لخدمة الإسلام وتاريخه، وتراثه بعامة قدر استطاعتهم.

ثقافتنا والتعليم الحديث:

كان المفروض والمرجو أن يواصل المسلمون تقدمهم العلمى والحضارى، الذى شمل العالم الإسلامى شرقيه وغربيه فى الأندلس، فى الوقت الذى كانت فيه أوربا وشعوبها تعيش فى ظلام دامس، وتتلمس أسباب التقدم من العالم الإسلامى وحضارته، وترسل بعثات على أعلى مستوى إلى الأندلس، لتقتبس منها شيئًا[١] من حضارتها.. ولكن هذا المفروض والمرجو لم يتحقق، وغط العالم

---

(١) يذكر الأستاذ طه المدور فى كتابه «بين الديانات والحضارات» بيروت ١٩٥٦ فصلا عن عدد البعثات التى أوفدها الغرب إلى الأندلس لتقتبس أنواع الفنون والصناعات.. نقلا عن المؤرخ الفرنسى «فاليير» «Falier» فى كتابه «استرداد الأندلس» من أن معظم المقاطعات الأوربية كإنكلترا وفرنسا وهولندا، وتوسقانا أرسلت بعثات منها للأندلس، ونخص بالذكر منها ثلاثة - الأولى فرنسية برياسة الأميرة إليزابيث، ابنة خالة لويس السادس ملك فرنسا، والثانية إنكليزية وعلى رأسها البرنسيس «دوبان» ابنة الأمير جورج، والثالثة وما يليها كانت إسبانية وبعضها من سافوا والبافار وسكونيا والرين. وقد بلغ عددها عام ٣١٢هـ - ١٢٩٣م وحده سبعمائة طالب وطالبة. وقد بعث الملك «فيليب» البافارى رسالة إلى الخليفة هشام الأول يسأله السماح له بإيفاد بعثة تتعرف على حالة بلاد الأندلس ودراسة أنظمتها وشرائعها لتتمكن من اقتباس المثمر المفيد لبلاده، فوافق الخليفة وأرسل الملك بعثته برئاسة وزيره الأول «ويليمين». كذلك بعث ملك إنكلترا خطابًا إلى الخليفة هشام الثالث بهذا الشأن، ووافق الخليفة وجاءت بعثة مكونة من ١٨ فتاة من بنات الأمراء والأعيان يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى ويحمل معه كتابًا للخليفة وهذا تعريبه كما جاء فى كتاب «العرب عنصر السيادة فى القرون الوسطى» للمؤرخ الإنجليزى «جون دوانفورت»: «من جورج الثانى ملك إنكلترا والغال والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام.. بعد التعظيم والتوقير. سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الضافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يحتاطها الجهل من أربعة أركانها، وقد وضعنا ابنة شقيقتنا الأميرة «دوبانت» على رأس بعثة من بنات أشراف إنكلترا لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم.. إلخ.. والإمضاء من خادمكم المطيع: جورج م.أ. وقد وافق الخليفة بخطاب بعث به إلى الملك قال فيه: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين وبعد. إلى ملك إنكلترا وايكوسيا واسكندفيا الأجل. لقد أطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشارة من يعنيهم الأمر على طلبكم. ونعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكى.. إلخ.. والإمضاء خليفة رسول الله على ديار الأندلس: هشام».

ويذكر الكتاب «بين الديانات...» أن البعثة الألمانية المكونة من ٢١٥ طالبًا وطالبة وزعت حسب رغبة «ويليمين» على معاهد الأندلس العلمية والصناعية حسب التخصصات الآتية: الفلسفة والعلوم المختلفة. صناعة النسيج والتطريز والنقش، الطبابة والتمريض، صناعة الأسلحة، صناعة الزجاج، صناعة بناء=

الإسلامى فى نوم عميق لعدة قرون، فى حين بدأت أوربا تمسك بالخيط، وتتقدم فى مجالات العلوم والصناعات. وتزحف غربا لتكشف أمريكا وغيرها من العالم المجهول، وتزحف شرقًا لتصل إلى الهند وما وراءها، عن طريق الدوران حول أفريقيا، وتفرض سلطانها على المحيط الهندى، وعلى الأمم الشرقية، ومنها العالم الإسلامى...

ويحصل هذا كله من أوربا، والمسلمون يغطون فى نومهم، ولا يعلمون ما يجرى فى أوربا من تقدم، وبالتالى لا يقتبسون منه شيئًا.. مما جعل الفارق بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى شاسعًا، ومن الصعب تعويضه، فلا هم واصلوا تقدمهم، ولا هم تنبهوا لنهضة غيرهم وتابعوها، واقتبسوا منها أولا بأول..

يقول الأستاذ المؤرخ المرحوم محمد صبيح[1]:

استغرق نهوض أوربا أربعة قرون، توقفت فيها حياة الفكر والابتكار فى معظم البلاد الإسلامية، ولاسيما مصر، لأن أصحاب السلطان فيها. وهم العثمانيون - كانوا رجال حرب.. وفى هذا الوقت أخذت أوربا تبنى حضارة فكرية ومادية هائلة، ركبت البحار، وذلت لها الأمواج، وأتقنت صناعة الأسلحة، وكان البارود والبخار والمطبعة من أهم ما اعتمدت حياتها عليه.. ولذلك أصابت المصريين الدهشة لما وجدوه سنة ١٧٩٨ فى الحملة الفرنسية من أشياء لم يكن لهم معرفة بها، من أسلحة ومطابع وغير ذلك من مظاهر الحضارة الغربية، وإن كان ذلك لم يلههم عن مقاومة نابليون وحملته، حتى طردوا آخر فلولها سنة ١٨٠١ م، ولقد كان التعليم فى هذه القرون على مستوى العالم الإسلامى قاصرًا على المستوى الذى كان عليه التعليم فى الأزهر من تدريس العلوم الدينية والعربية، باعتبار أن هذا عندهم هو العلم الحقيقى الذى يجب على المسلمين العناية به أما ما عداه فلغو يلهى عن العلم الحقيقى!!

= السفن، صناعة الورق، البارود، بناء القلاع والحصون، علم الفلك والسيما (أى الكيمياء والفيزياء) العلوم الزراعية والصناعية الأخرى» وقد تولى حكم الأندلس ثلاثة باسم هشام. الأول من ١٧١ هـ - ٧٨٧م - ١٨٠، والثانى من ٣٢٦ - ٣٩٩هـ، والثالث من ٤١٨ - ٤٢٢ه القرن الحادى عشر..

(١) فى كتابه «أيام وأيام» ص ١٢.

ولم يكن فى مصر من دور للتعليم غير الأزهر، والكتاتيب المنتشرة فى المدن والقرى، والتى تمده بالغذاء من الطلبة الحافظين للقرآن، العارفين بالقراءة والكتابة، ومنتهى أمل كل متطلع للعلم أن يكون من المتعلمين فى الأزهر والمتخرجين فيه، العارفين أو المتبحرين فى علوم الدين واللغة العربية.. وكان للأزهر نظامه ومنهجه الذى أخذ شبه القداسة فى ثباته، وكذلك كتبه التى تدرس فيه.

«وكما كان للمسلمين كتاتيبهم الخاصة بهم، كان، للأقلية القبطية كتاتيب تدرس الدين والأخلاق والقراءة والكتابة باللغتين العربية والقبطية»[١].

ومعنى هذا أن المصريين لم يكونوا مهتمين إلا بلغتهم العربية وبدينهم الإسلامى أو المسيحى.. على النظام المعهود لهم من قرون..

أما العلوم التى سميت بالعلوم الحديثة، التى جلبت من أوربا فيما بعد، فلم يكن لديهم بها عناية مع أن المسلمين إبان ازدهار حضارتهم كانوا أساتذة هذه العلوم، وعنهن نقلتها أوربا وزادت فيها.

وكان ما وصل إليه المسلمون من حضارات مزدهرة فى قرونهم الأولى، صدى لتعاليم دينهم التى تأمرهم باكتساب كل علم يتصل بالدين أو بالحياة، وبالتفوق فيه، حتى يكونوا فى مقدمة الأمم..

ولكن مدارس المسلمين فيما بعد وعلى رأسها الأزهر أخذت جانبًا واحدًا من هذه العلوم، وعكفت عليها ولم يكن لهذه العلوم التى يعنى بها الأزهر أية صلة بالحياة العملية وأساليب التقدم المادى فيها.. وكذلك كان خريجوه حتى بلغ بهم تعصبهم للوضع الذى ارتضوه، إلى رفض كل إصلاح يدخل عليه، ولو كان نافعًا... خوفًا من أن يؤثر هذا الإصلاح على مستوى علوم الدين واللغة: حتى الكتب وتهذيب أسلوبها، رفضوه بحجة المحافظة على التراث!! مع عتامة هذا الأسلوب وتعقده...

---

(١) التعليم الأجنبى ص ٣٢ مصدر سبق ذكره، والتعليم فى عهد محمد على ص ٦٦٧ مصدر سبق ذكره.

وكان هذا باختصار هو وضع التعليم فى مصر لعدة قرون حتى نهاية القرن الثامن عشر، وبداية التاسع عشر.

وبقدر ما ابتعد هذا التعليم عن العلوم المادية الحديثة التى تنهض بالأمم ماديًا وحضاريًا، كان دوره القوى البالغ فى حفاظه على طابعنا الإسلامى، وشخصيتنا العربية، أمام كل غزو ثقافى من الخارج...

وهذا شىء محمود بلا شك، لكنه ليس كل شىء فى حياة الأمم وتقدمها، وقوة شوكتها، فالتقدم المادى يحتاج إلى الإرتكاز على العلوم والصناعات.. والإسلام يعنى بالناحيتين، ويطير بالجناحين، ولهذا تأخرت مصر والعالم الإسلامى كثيرًا عن العالم الغربى، الذى أخذ بوسائل التقدم المادى من علوم وصناعات...

ولذلك كان لابد لمصر أن تصحو، وتأخذ بوسائل التقدم هذه، بعد هذه الرقدة الطويلة...

فى عهد محمد على:

وقد بدأ عهد محمد على ببداية القرن التاسع عشر فقد رحلت آخر فلول الحملة الفرنسية عن مصر فى ١٨٠١، واختار شعب مصر بقيادة علماء الأزهر والأشراف «محمد على» ليكون واليًا على مصر من قبل الباب العالى العثمانى، ولم يرضوا بالوالى الذى أرسله بعد نابليون، واضطر الباب العالى لأن يوافق على رأى مصر، باختيار محمد على واليًا عليها، فى يوليو ١٨٠٥م، وكان ذلك مظهرًا من مظاهر الإرادة الشعبية لمصر..

وفى أوائل عهد محمد على هاجم الإنجليز مصر للاستيلاء عليها، ولكن الشعب وقادته استطاع أن يصدهم ويقضى على جيشهم، ويجبرهم على النزوح من البلاد، بعد ما هزم «فريزر» بجيشه فى موقعة رشيد ١٨٠٧م.

وخلص حكم البلاد لمحمد على من الناحية الخارجية، وإن بقى له منافسون من المماليك استطاع أن يكسر شوكتهم.

وكان محمد على جنديًا ألبانيًا فى جيش الخلافة العثمانية، الذى أرسل لمقاومة

البليون، وشاء الله أن يتولى حكم البلاد باختيارها، ليكون له ولأسرته تاريخ مرتبط بها.. وليبدأ خطوة جديدة فى النهوض بها...

كان أميًّا ولكنه لم يكن شابًّا ولا رجلا عاديًّا، بل كان موهوبًا، وله طموحات واسعة، فاستطاع بدهائه وسياسته أن يكسب ثقة المصريين، حتى اختاروه واليا، ولكنه حين تمكن من كرسيه استدار على من اختاروه، وقصَّ أجنحتهم، وغدر بهم، حتى لا يشاركوه الرأى فى حكمه، ثم على المماليك، ودبر لهم مذبحة القلعة ليخلو له الجو فى حكم البلاد..

وكان أمل الاستقلال بحكمها يداعبه، كما كانت الرغبة فى النهوض بها تشغله.. وجعل من تكوين جيش قوى المفتاح الذى يفتح له أبواب الوصول إلى طموحه..

ولكن كيف يبنى هذا الجيش؟

لقد كان أمامه التعليم فى الأزهر، ولكنه برغم أصالته وحفاظه على الدين واللغة، لم تكن مناهجه تؤدى إلى تخريج شباب يمكن الاعتماد عليهم[١] وعلى ما اكتسبوه من علوم فى تكوين هذا الجيش الذى يطمع محمد على فى تكوينه جيشًا قويًّا، يمكنه من الاستقلال بحكم مصر عن الدولة العثمانية.. إذ لم تكن وسائل تكوين جيش حديث قوى بعيدة عن تصوره.. بعدما رأى على الأقل

---

(١) يقول رفاعة الطهطاوى بعد أن يذكر علوم الدين واللغة وعلماء الأزهر: «إن هذا وحده لا يكفى الوطن بقضاء وطر، والكامل يقبل الكمال - ولا يرفضه - ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة، منوط بعد ولى الأمر بهذه العصابة (علماء الأزهر)، التى كان ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ورفع أعلام الشريعة الحنيفة، معرفة سائر العلوم البشرية المدنية من كل ما يحمد على تعليمه وتعلمه علماء الأمة المحمدية» كتاب الإمام محمد عبده، لعبد الحليم الجندى ص ١٤ - دار المعارف..

ومما يذكر فى سجل تاريخ الأزهر ومناهجه فى القرن الثانى عشر (الهجرى)، أنه كان يدرس فيه فوق علوم الفقه واللغة، وعلوم الحساب والميقات والجبر والهندسة والمقابلة والمنحرفات، وأسباب الأمراض وعلاماتها، وعلم الإسطرلاب والزيج والفلك، والأعمال الرصدية، والحيوان والنبات والمعادن. واستنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم - المصدر السابق ص١٣ ولكن ذلك اندرس واقتصر الأزهر على علوم الدين واللغة والعناية بهما.. وإهمال ما عداها، اللهم إلا بعض قشور من العلوم الأخرى لا تعتبر شيئًا بجانب التقدم العلمى فى الغرب...

جيشًا فرنسيًّا وآخر إنجليزيًّا فى حملتهما على مصر، وما كانا عليه من استعداد، بالإضافة إلى ما عرفه - ولابد - عن تقدم أوربا بعلومها وصناعاتها، ومما لم يجد له مثيلا فى مصر.. وإزاء هذا كان لابد له من الاستعانة بعلوم الغرب وصناعاته وأنظمته، وأن ينفتح على هذا كله، فماذا يفعل؟

هل يمكن أن يدخل التعليم الحديث على مناهج الأزهر والكتاتيب التى تمده بالطلاب، حتى يتخرج منه أطباء ومهندسون وصناع ورجال إدارة.. إلخ؟ كان هذا هو الأسهل والأقرب..

ولكن كان مستحيلا فى وقته.. فقد عارض الأزهر بعد مائة سنة تقريبًا من هذا الوقت مجرد إصلاحات يسيرة أراد الشيخ محمد عبده إدخالها على مناهجه وسير الدراسة فيه..

وإذن فلابد أن يترك الأزهر مع كتاتيبه، يسير على النمط الذى يسير عليه، حتى يتجنب الثورة والسخط عليه، ويختصر وقت الإصلاح الذى يريده بدون متاعب..

ويتجه إلى إنشاء مدارس حديثة تخدم هدفه بالسرعة التى يريدها، ويقتبس نظامها من الغرب، ويكون حر التصرف فى توجيه هذه المدارس وتطويرها كما يريد، دون أن يمس الأزهر أو يثير أحدًا منه عليه.. وعلى هذا أنشأ المدارس الحربية، ومدارس للطب والهندسة والألسن والزراعة والصناعة، وأنشأ لذلك المدارس الابتدائية والتجهيزية التى يغذى طلابها هذه المدارس[1] العالية..

---

(١) مما ينبغى ذكره هنا أن هؤلاء الطلاب لم يكونوا يأتون إلى هذه المدارس مختارين، بل كان أعوان الوالى يجمعونهم كرهًا، ويأخذونهم من أهليهم، كما يأخذون الجنود وعمال السخرة، ويدفعون بالأطفال أو الصبيان إلى هذه المدارس، وأهلوهم مشفقون عليهم، يبكون، ويعيش الطلاب فى هذه المدارس قريبًا مما يعيش الجند فى ثكناتهم، ويظلون بعيدين عن أهليهم مددًا مختلفة، وكانت الحكومة تعطى كل تلميذ مصروفًا وتقدم لهم الكساء والطعام، وتشرف عليهم صحيًا حتى يتخرجوا.. وكان الأهالى يكرهون هذه المدارس ولا يقدم أحد منهم ابنه إليها مختارًا، وكان على العكس من ذلك تمامًا: الأزهر.. ولذلك ظل عامرًا بطلابه الذين يأتون إليه يعيشون فيه مختارين، ولا شك أن محمد على بذل جهودًا مضنية فى سبيل التعليم، ووضع بذلك حجر الأساس له، لكى ينمو بعده، ويرى إبراهيم باشا أنه لا يمكن أن يؤتى ثماره إلا إذا صادف إقبالا من المصريين أنفسهم، واقتناعًا به، وبدأ يعمل لذلك، وبالتدريج بدأ المصريون يقتنعون بـه،=

ولم تكن هذه المدارس فى بدء عهدها ببعيدة عن تدريس علوم الدين واللغة وحفظ القرآن، فقد كان بعض أساتذتها من الأزهر، بل ونظارها، وكان المهم أن تعد الطلاب بما عرفوه من كتابة ودين ولغة وحساب إلخ للمدارس المتخصصة العالية، ليكونوا بعد ذلك موظفين فى الحكومة أو الجيش أو المستشفيات أو بدور الصناعة أو بالإدارة وحكم البلاد ومعاونة الحاكم.. إلخ..

بعثاته إلى أوربا:

ولم يجد محمد على بدًّا من الاستعانة بالأزهر والمتعلمين فيه فى أولى الدفعات لمدرسة الطب والمهندسخانة وغيرهما، ومن إرسال بعضهم إلى بعثات لأوربا.. وكان منهم الشيخ رفاعة رافع الذى عين إمامًا[1] للبعثة الموفدة إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ وعاد، وكان إمامًا ورائدًا حقًّا للنهضة الحديثة، كما كان غيره من رواد النهضة معه من أبناء الأزهر.

وقد اتجه محمد على فى بادئ الأمر إلى الاعتماد على إيطاليا، وتدريس اللغة الإيطالية فى مدارسه الحديثة، فاستدعى الأساتذة والضباط منها، واختار كتبًا إيطالية فى العلوم والصناعات لترجمتها، وكانت أولى بعثاته إليها سنة ١٨١٣ م، ثم اتصل بفرنسا وأخذ اتصاله بها واعتماده عليها يكثر، فانتعشت اللغة الفرنسية واضمحل شأن الإيطالية.

وكانت البعثة الثانية إلى فرنسا سنة ١٨١٨، ثم فى ١٨٢٦ ومن بعد إلى ١٨٣٣ أرسل سبعين مبعوثًا للتعلم فى فرنسا، فى فروع مختلفة، كما أرسلت بعثات إلى النمسا وإنجلترا بعد ذلك طوال مدة حكمه..

ولم يكن ذلك غريبًا بعد أن لمس مدى الاستفادة من هذه البعثات حين رجعت فى النهوض بالبلاد فى مختلف الميادين..

=ويقبلون عليه نسبيًّا، ولعلنا ندرك هذه الحالة من القانون الذى ألزم الآباء بتعليم أولادهم الآن فى المدارس الإلزامية، وفرض عليهم غرامة إذا هم تأخروا فى ذلك (راجع الفصل الثالث - المدرسة والمجتمع من كتاب التعليم فى عهد محمد على) ص ٦٣٢ وما بعدها للدكتور أحمد عزت.

(١) إختاره الشيخ حسن العطار وكلفه بأن يقيد ما يراه هناك نافعًا لأمته وقد ولد رافع ١٨٠١ وتوفى ١٩٧٣ م.

ولقد كان من الضرورى - كما قلنا - أن يهتم محمّد على بالمدارس التى تغذى التعليم العالى التخصصى، ولذلك رأيناه يعلن أنه يريد نشر التعليم فى البلاد، حتى يتعلم الشعب، ولكن إمكاناته تقصر عن هذا، فيقتصر على بعض المدارس الابتدائية والتجهيزية.

فأنشأ ٦٧ مكتبًا فى الأقاليم أو مدرسة ابتدائية من سنة ١٨١١ حتى ١٨٣٦، وإن كانت هذه المدارس بين شد وجذب، وكانت تابعة لديوان الجهادية أى للجيش، إذ كان الغرض الأول منها تغذية الجيش ولذلك كانت الصبغة الغالبة صبغة حربية من ناحية الضبط والربط فى المشى والأكل والنوم إلخ..

وفى سنة ١٨٣٦ انتقل التعليم من الجهادية إلى ديوان «شورى المدارس» ثم «ديوان المدارس» ووضعت له لوائح، وقل النفوذ الأجنبى فى التعليم، بالاستغناء عن خدمات كثير من الأجانب، وجعل التعليم على ثلاث مراحل: الابتدائية والتجهيزية والخصوصية، وهى العالية، التى تعنى بإعداد موظفين للإدارات المختلفة المدنية والحربية..

ولقد كانت مناهج هذه المدارس فى أول الأمر تعنى بالقرآن والدين واللغة العربية، وتدرس الكتب الأزهرية فيها، وتعتمد فى أغلبية مدرسيها على الأزهريين بجوار المواد الحديثة من لغة وحساب وجبر إلخ..

فلما مضت السنون وتخرج منها طلاب، وبدأت ثمرات التعليم الحديث تظهر، وبدأ العائدون من البعثات يشرفون عليه، اتجه التعليم إلى الغرب أكثر من ذى قبل، وأخذ القائمون على التعليم بتوجيه محمد على طبعًا ينشئون مكاتب أو مدارس أولية، على غرار ما فى إنجلترا، ثم فرنسا من نشر التعليم «من أقصر طريق وفى أقصر وقت».

ولذلك كانت مواد الدراسة به قليلة، ولم يعد يعنى التلاميذ فيه بحفظ القرآن، أو قراءة الكتب الأزهرية فى الدين والنحو والصرف، بل اتجه الاهتمام إلى دراسة القراءة والكتابة والحساب[1]».

---

(١) من ص ١٤٠ وما بعدها من كتاب «التعليم فى عهد محمد على» تأليف أحمد عزت عبد الكريم ١٩٣٨ نشر مكتبة النهضة.

ولقد كان لهزيمة محمد على أمام أساطيل الغرب[١] وتركيا صدى بعيد فى آماله، وأصيب بما نسميه «كسر نفس»، فأصيبت بهذه الحالة المدارس الحربية بصفة عامة، وهى التى كان التعليم كله بسبب تغذيتها، فضعف هذا التعليم أيضًا.

وليس هنا المجال الواسع الآن لمتابعة حركة التعليم الحديث فى عهد محمد على، ثم فى العهود التى تلته حتى الآن، فسنعود إليه.

ويكفينا هنا أن نشير إلى بدء إنشاء التعليم الحديث المنفصل عن التعليم الذى اعتادته مصر فى تاريخها قبل عهد محمد على، وهو التعليم الأزهرى الذى كان مستقلا بحركة التعليم فى البلاد، حيث ترك محمد على هذا التعليم يجرى ويسير فى مساره العادى، وأنشأ بجانبه التعليم الحديث المقتبس من النظام الغربى وعلومه، حتى يستطيع بناء جيش قوى ونهضة علمية وصناعية بالبلاد، وتم له ما أراد فعلا.

وقد بدأت المدارس التى أنشأها محمد على متعاطفة فى موادها مع حفظ القرآن وعلوم الدين واللغة، وشيئًا فشيئًا خفت أو خف وزن هذا التعاطف، واتجهت العناية أكثر وأكثر إلى العلوم الحديثة.. وكان هذا بدء ازدواج التعليم فى مصر.. تعليم أزهرى له نظامه ومنهجه، لم يكن يهتم بالعلوم الحديثة، ونظام تعليمى حديث

---

(١) بلغ جيش محمد على ١٢٥ ألفًا كان موزعًا على رقعة من الأرض تبلغ آلاف الأميال أحيانا من القاهرة، حتى اتجه محمد على إلى احتلال اليمن والبحرين والإحساء ليحصل على خيراتها ويستعين بها فى تقويه جيشه، وهزم هذا الجيش الدولة العثمانية نفسها، ووصل إلى آسيا الصغرى، وإلى ما هو أبعد من ذلك، وهذا غير حربه فى السودان، وفى الجزيرة العربية حتى وصل إلى الدرعية، والرياض ص٢٠ من كتاب «أيام وأيام» لمحمد صبيح الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧.

ولكن هذا المجد العسكرى الذى بلغه جيش مصر بقيادة إبراهيم باشا أرهب الدول الغربية فتحالفت عليه فرنسا وإنجلترا وألمانيا وروسيا وهزمت أسطوله فى موقعة «نافارين» البحرية فى اليونان سنة ١٨٣٧، واضطر بعدها إلى توقيع معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ قصت أجنحته، وحدت من جيشه، وحصرته داخل مصر، وأخذت كل المدارس والأجهزة التى كانت من ورائه تغذيه فى الضعف تدريجيًّا، وإن كانت خطته فى إرسال البعثات للخارج قد ظلت، وكان عدد المبعوثين حين توفى ٧٢ مبعوثًا، وميزانية التعليم ٨٨ ألفًا، وعدد التلاميذ فى المراحل كلها تسعة آلاف (عن المصدر السابق)، وفى أيام محمد على جاءت بعثة من اليابان إلى مصر لتقتبس أساليب محمد على فى النهوض بمصر، لتسير عليها فى اليابان كشأنها فى الاقتباس من غيرها حتى الآن.. وقد سارت اليابان فى طريقها دون عوائق، أما نحن فقد أصابتنا العوائق الكثيرة من الاستعمار.. فكنا كما نحن الآن، وكانت اليابان، وكان هذا قدرنا..

بجانبه يهتم بالعلوم الحديثة، كأداة للنهضة الحديثة واللحاق بالغرب مما فرض عليه مجاراته والاقتباس منه.. والسير على هداه، دون العناية بالدين واللغة كما ينبغي..

ولا شك أن الذين عادوا من بعثاتهم فى الغرب، أفادوا البلاد كثيرًا بما اكتسبوه من هناك من علم وتجارب فى تخصصهم، ولكن مما لا شك فيه أنهم عادوا منبهرين بما وصل إليه الغرب من تقدم، متأثرين قليلا أو كثيرًا بأوضاعه السامية هناك، وأنظمته ونظرته للحياة وتقاليده، فكان لذلك أثره على مجرى التعليم.

والتعليم فى الغرب قد انفصل عن الدين، وأبعد الدين ورجاله عن المدارس، وانطلق يعنى بعلوم الحياة المدنية كما يشاء، دون أية عناية بالناحية الروحية المعنوية المستمدة من الدين.. وكانوا هناك ثائرين على الكنيسة ورجال الدين، وكل ما يتصل به، وكان الذين عادوا من بعثاتهم هناك قد لاحظوا ذلك، وربطوه بما رأوه من تقدم، وبما سمعوه من الأوربيين، من أنهم لم يتقدموا إلا بعد استقلالهم عن الكنيسة ورجالها، ولم يعد لهم ولا للدين أثر فى حياتهم، إلا داخل الكنائس لمن يذهب إليها...

ولا شك أن هذه النظرة قد ألقت ظلها على فكر المبعوثين خفيفًا أو ثقيلا، وعادوا محملين بهذا الفكر، وهم إن لم يستطيعوا تنفيذه عمليًّا، فقد خفف قليلا أو كثيرًا من نظرتهم لأهمية الدين ودراسته فى المدارس على الأقل.

وإذا كان هؤلاء قد احتلوا مراكز الريادة والقيادة والتوجيه والإشراف على وسائل النهضة الحديثة، وكانوا قد حملوا معهم عدوى هذه النظرة الغريبة للدين، فإن هذه العدوى - وإن كانت حتى فى دور الحضانة لدى هؤلاء المبعوثين - كان لها أثرها فى التعليم وفى الحياة بوجه عام...

وإذا كان التعليم وعدد البعثات والمبعوثين للخارج، قد أصيبا بنكسة بعد محمد على مباشرة فى عهد عباس الأول، فقد جاء بعده سعيد سنة ١٨٥٤ وزاد انفتاحه على الغرب[١].. ولاسيما بعد أن اتجه لشق قناة السويس، واتفق مع «ديلسبس»

---

(١) ألغى سعيد ديوان المدارس والمهندسخانة والطب ثم أعادها فى حين كان يشجع المدارس الأجنبية بالمنح والهبات (راجع التاريخ مصر السياسى لمحمد رفعت ص ١٨١).

على شقها، وإن كان التعليم والبعثات لأوربا لم يكن لها نصيب من هذا الانفتاح لأن الجهال أقرب إلى الانقياد من المتعلمين فى رأيه!!...

وجاء إسماعيل باشا سنة ١٨٦٣م وافتتح قناة السويس، وازداد انفتاحًا على الغرب، ورغبة فى محاكاته وتقليده فى حياته، حتى كان شعاره: أن يجعل مصر قطعة من أوربا. كما هو المشهور عنه..

فأخذ التعليم على النمط الغربى خطه كذلك من التقدم، بعد أن جنت البلاد شيئًا من ثماره فى تقدمها، كما خطا النظام الدستورى الشورى خطوة لا بأس بها حتى أنشئ «مجلس شورى النواب» فى أيام إسماعيل، وإن كان قد عاد وأمر بحله فى مارس ١٨٧٩، حين وجده يتطلع إلى إثبات وجوده، والاطلاع على الميزانية ومناقشتها، ولم يرضه ذلك، كما لم يرض عنه الغربيون الذين صار لهم نفوذهم على مجرى الأمور فى مصر..

وتذكر كتب التاريخ أن رياض باشا وزير الداخلية ما كاد يتلو قرار حله فى الجلسة حتى انتفض الأعضاء غضبًا، وأعلنوا رفضهم للقرار، حتى قالت جريدة «التيمس» اللندنية فى ١٦ أبريل سنة ١٨٧٩ تعليقًا على هذا «إن أعضاء مجلس الشورى النواب أظهروا أدلة كثيرة على استقلالهم» وذكرت القصة.

وقد ترتب على هذا استقالة الوزارة وتولية شريف باشا رئيسًا لها، وقد عرف عنه تمسكه بالدستور حتى قيل عنه: أنه «أبو الدستور»، وانحاز إلى صف الشعب، مع أنه غير مصرى الجنسية والأصل، وتربى فى القصور الخديوية، وكان يعمل مع جمال الدين الأفغانى على التخلص من إسماعيل، وتولية ابنه توفيق لصلته بها، لما كان يتعهد به لها من تنفيذ آرائها الإصلاحية، ولكنه ما كاد يتولى الحكم بعد عزل أبيه إسماعيل فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ حتى غدر بالأفغانى وتنكر لآرائه السابقة..

ونذكر هذا هنا استطرادًا للدلالة على ما وصلت إليه مصر فى ذلك الحين من بشائر التقدم والنهضة فى مجالات الحياة.. لكن الديون التى تراكمت على مصر من دول الغرب، بسبب شق قناة السويس، والاحتفال الذى أقامه إسماعيل

بافتتاحها، مكنت الغرب من فرض نفوذه على الخديوى والتدخل فى شئون مصر الداخلية، باسم حماية هذه الديون.. وبالتالى فى محاربة كل نزعة وطنية أو دينية، مما كان له أثره على مجرى الأمور التى انتهت بالثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى لمصر الذى كان له أثره السيئ عليها فى جميع النواحى..

ولولا هذا الذى دبر له الغرب بإحكام، ووقع فى شباكه حكام مصر، لسارت مصر فى نهضتها التى سبقت بها كل أمم الشرق، وبلغت فى تقدمها على الأقل ما بلغته اليابان، التى أرسلت بعثة منها إلى مصر أيام محمد على، لتطلع على نهضتنا، ولتقتبس منها ما تراه مفيدًا لها.

وقد سارت اليابان فى طريقها دون عوائق وأصيبت نهضة مصر بالنكسات، حيث ظل الاحتلال جاثمًا على صدرها من ١٨٨٢ إلى ١٩٥٦، حيث رحل آخر جندى من جنوده فى يونيو من ذلك العام.. وكان من سوء حظ مصر أنها لم تنعم بعد ذلك باستقرار سواء من حيث أعداؤها الخارجيون، أم من تخبط سياستها الداخلية، وفقدانها للكثير من معالم الروح الأصيلة لثقافتها، مما أصابها بالتشتت والاهتزاز فى التصويب نحو هدفها، وبالتالى فى ضياع الكثير من جهودها وآمالها..